المحاضرة االثانية : البيئة التي نشأ فيها المسيح

1.الحالة السياسية :

-كانت فلسطين خاضعة للسيادة الرومانية منذ أن استولت روما على أورشليم-القدس سنة 63 ق م ، وقد انتهجت السلطة الرومانية في أوّل الأمر نظام الحماية و أوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلّي دون الكفّ عن مراقبته و ضمان ولائه ، وهكذا تولّى الحكم رجل آدومي متهوّد هو " هيرودس الأكبر" من 37-4 ق م.

وقبل وفاة هيرودس الأكبر أوصى أن تقسّم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء ، فحكم ابنه فيليبس الإقليم الشرقي المعروف باسم Bantanea الذي يحتوي على مدائن فلدفيا و بصرى ، و حكم هيرود أنتباس أرض Perea الأرض الواقعة شرق الأردن و الجليل في الشمال و طبرية و الناصرة ، و كان نصيب اركلوس سمريتس و إيدوميا و يهوذا.

-وقد عرفت المرحلة اضطهاد الحكّام للشعوب ؛ ف "هيرودس أنتيباس" – ابن هيرود الأكبر- كان يأمر بقتل كلّ طفل فلسطيني نشأ في بيت لحم لم يبلغ السّنتين بسبب بعض الرّؤى كان يراها بعض كهنة المجوس ، فقد جاء في إنجيل متّى (16/2) :" فلمّا رأى هيرودس أنّ المجوس استهزأوا به غضب جدّا و أمر بقتل كلّ طفل في بيت لحم و جوارها من ابن سنتين فما دون ذلك ، حسب الوقت الذي تحقّقه من المجوس"

و قد كان "أرخلاوس" الذي ملك النّصف الثاني من فلسطين لا يقلّ قساوة عن أخيه ف " أرخلاوس تقلّد رذائل ابيه و لهذا شُكِي عليه في السنة العاشرة من ملكه علانية أمام أوغسطس و نُزِع عنه تاجه و البلدان التي كان يملك عليها و تحوّلت حينئذ إلى ولاية رومانية و أضيفت إلى سورية" .

ولذلك لما أراد يوسف النجّار دخول إسرائيل بعد هلاك هيرودس لم يتمكّن من دخولها لأنّه " سمع أنّ أرخيلاوس يملك على اليهودية خلفا لأبيه هيرودس فخاف أن يذهب إليها ، فأنذره الله في الحلم فلجأ إلى

الجليل و جاء إلى مدينة اسمها النّاصرة فسكن فيها ليتمّم ما قال الأنبياء " يدعى ناصريا" (مت:22/2-23).

2. الحالة الاجتماعية:

و كان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين و نصف المليون من الأنفس يقيم منهم في أورشليم وحدها نحو مائة الف ، وكان معظمهم يتكلّمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم و علماؤهم يفهمون العبرية ، أمّا الموظّفون و الأجانب و معظم المؤلّفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية.

وكان معظم السكّان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض و يسقون الزّرع ، و يعنون بالحدائق و الكروم و يرعون الضّأن ، و كانت فلسطين في حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفي أهلها و تبقى منه فضلة تصدّر للخارج .

و كانت الصناعات اليدوية وراثية في أغلب الأحيان ، ، و كان الصناع ينتظمون عادة في طوائف ، و كان اليهود يعظّمون العامل و كان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم .

وكان الأرقّاء أقلّ عددا منهم من أيّ بلد من بلاد البحر الأبيض المتوسّط . وازدهرت التجارة لكن عدد التجّار اليهود ذوي الثراء و التجارة الواسعة كان لا يزال قليلا فيها.

3.الحالة الدّينية و الفكرية :

-يذكر يوحنّا لورنس أنّ جميع الشعوب التي كانت تحكمها روما كانوا متوغّلين في أفظع الخرافات ، فكلّ الشعوب التي كانت تحت سيطرة الرومان كانوا وثنيّين إلا شعب اليهود.

-وقد كان يسود تلك المنطقة بعض النزعات الفلسفية ، منها بعض الفلسفات التي أعلنت إلحادها ك الأبيقوريون الذين أعلنوا أنّ العالم جاء صدفة و أنّ النفس غير خالدة و أنّ التمتّع باللّذات يجب أن يكون غاية الإنسان العظمى، ومنها فلسفات لم تعلن إلحادها لكن تصوّرت الإله مثل الآلة الميكانيكية لا يعبأ بأمور الناس ، ومنها فلسفات تصوّرت الإله هيولى متّحدا بالمادّة اتّحادا لازما وخاضعا للأجل ولا يمكن أن

يجازي بخير أو شرّ ، وقد كان من أنصار هذا القول الرواقيون ، أمّا الافلاطونيون فيظهر أنّهم فاقوا جميع الفلاسفة بالحكمة لأنّهم اعتقدوا بأنّ العامل يسوسه إله مستقلّ قادر عاقل و علّم الناس ما يجب أن يخافوه وما يجب أن يرجوه بعد الموت .

-أمّا اليهود و هم الذين بُعِث إليهم عيسى عليه السلام " ما أرسلني الله إلّا إلى الخراف الضالّة من بني إسرائيل" (مت:24/15) فقد كانوا يبدون بمظهر الشّعب المتّحد في الجنس و العادات و التقاليد ، إلّا أنّ هذه الوحدة كانت تخفي قدرا لا بأس به من التنوّع ، فقد كانت بين الفرق المنتشرة بعض الخلافات العقدية كانت تصل أحيانا إلى درجة التّناقض و كانت كلّ طائفة تسعى لفرض آرائها الدّينية و العقيدية و تسعى لتزعّم المشهد الدّيني.

* فالصّادوقيون : و هو الذين ينحدرون من الطبقة الأرستقراطية ببيت المقدس الذين كانوا يمثّلون الغنى و الدّين و السّلطة و المكانة في المجتمع اليهوديّ ، ولذلك يعدّهم الكتّاب حزب المحافظين في الشعب اليهوديّ .

كان الصادوقيون ينادون بفرض التوراة الرواية المكتوبة على كلّ الأمّة اليهودية ، ولكنّهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث و القصص الشفوية التي كان يتناقلها رجال الدّين ، خاصّة التفاسير الطّليقة التي كان يقول بها الفرّيسيون ، وكانوا يرتابون في خلود الرّوح و يقنعون بامتلاك طيّبات هذا العالم .

أنكر الصادقيون كلّ أدبيات العهد القديم ما عدا الاسفار الخمسة أو التوراة ، كما أنكروا القيامة و الحساب و قالوا بأن الحياة مادّية ة العلاقات فيها تقوم على هذا الأساس .

* **الفرّيسيّون** : (Pharisiens)

كلمة عبرية معناها المنعزلون و المنشقّون ، و جاء في قاموس الكتاب المقدّس أن الكلمة من أصل عبريّ.ويرى ديورانت أنّ هذه التسمية أطلقها الصادوقيون عليهم.

كان الفرّيسيّون يلقّبون أنفسهم ، فيما بينهم، ب " الحسيديم " أي الأتقياء ، و كذلك " حبرييم" أي الرفقاء و الزملاء، و لعلّ استعمال العرب لكلمة الأحبار جمع حبر آت من هذا الأصل.

كان الفرّيسيون ينتمون إلى الطبقات الشعبية و يحظون لديها بنفوذ و تقدير كبير منذ نشأة فرقتهم في عهد المكابيين، حيث نجحت آنذاك في مقاومة الحركة الوثنية الهيلينيستية.

وكانت لهم 3 سمات مميّزة :

أوّلها : عدم اقتصارهم على نصّ الشريعة المدوَّن و اعتبارهم للسنن الدّينية الشفوية ، و من هنا – ونظرا لانتساب العديد من الكتبة إلى فرقتهم- كان شغفهم بالجدل في المسائل الشرعية و استنباط الحلول المعقّدة لها .

ثانيا:الذي قامت عليه شهرتهم فهو حرصهم الشّديد على الطهارة الشرعية و البحث عن أفضل الطرق لقضائها على الوجه الأقدس ، لذا عرفوا بغيرتهم الدّينية و حماستهم المفرطة.

ثالثا:اعتقادهم الرّاسخ في البعث الجسمانيّ ، وقد كان العلامة المميّزة لهم عن الصّادوقيين المنكرين له.

و الجدير بالملاحظة أنّ حواريّي عيسى كانوا فيما يبدو من الفرّيسيّين فكان موقف هؤلاء من الدّعوة الجديدة مزدوجا و متقلّبا ، وربّما كانت الإعتبارات السّياسية و مدى التعلّق بالإستقلال اليهوديّ و بالهيكل المعيار الأساسيّ في تحديد هذا الموقف و تكييفه حسب الظروف.

***الأسينيون:** أبرز الوثائق عن تاريخ و أفكار هذه الفرقة هي لفائف أو مخطوطات البحر الميّت التي عثر عليها في واد قمران مع منتصف هذا القرن العشرين الميلادي.

و تبيّن المصادر أنّ هذه الفرقة ظهرت بين يهود فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد، و من الأسماء التي تطلق عليهم أيضا " المغتسلين " أو " الأطهار"

هذه الفرقة لها قوانيها الخاصّة و أفكارها الخاصّة ، لكن سمتهم الأساسية هي المبالغة في الطهارة ، وقد وجد كثير من الباحثين تشابها كبيرا بينها و بين بعض الديانات ك" البراهمة" و" البوذيين" و" الفيثاغوريين" ، ممّا يدلّ على أنّها كانت هجينا من أفكار و تيارات عدّة.

إنّ الأسينيين كانوا خاضغين لأفكار صارمة ، فقد كانوا يحظرون الملكية الفردية و يحضّون على الزّهدو على عدم الزواج و إقامتهم كانت غالبا في مناطق نائية ، وغالبا كانوا يقطنون المغاور و الكهوف ، و معاشهم كان من الرعي و الزراعة ، وكانوا يمارسون كلّ صباح عادة الإغتسال من مياه الينابيع ، لذا ترجّح بعض المصادر أنّ يوحنّا المعمدان كان مقرّبا من الأسينيين.

مع مجيء المسيح عليه السلام آمن الإيسينيون بدعوته لكنهم بعده رفضوا أن يعترفوا ب بولس ، و ظلّوا متمسّكين بالنواميس اليهودية أو الأصحّ الموسوية ، و بعد تدمير الهيكل عرفوا باسم المسيحيين اليهود أو الأبونيين.

أولائك هم الصادّوقيون و الفرّيسيون و الأسينيون أشهر الشّيع الدّينية اليهودية في الجيل السّابق لميلاد المسيح . أمّا " الحكميون" (الكتبة) الذين كان يضمّهم عيسى إلى الفرّيسيين فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصّة ؛ كانوا علماء متفقّهين في الشريعة يحاضرون فيها في البيع و يعلّمونها في المدارس و يناقشونها في المجتمعات العامّة و الخاصة و يطبّقونها على الأحكام في القضايا المختلفة ، وكان عدد قليل منهم أحبارا و بعضهم صدّوقيين و كثرتهم فرّيسيين.

أمّا السّامرة فلم يكن يعدّهم اليهود من شيعهم و طوائفهم بل كانوا يعدّونهم دينا أخر ، خاصّة أنّ الخصومة و العداوة بينهما قد بلغت أوجها .

و السامريون يفترقون أيضا عن باقي اليهود في قضية أساسية هي موقع الهيكل و اتجاه القبلة ، وقد تحدّث الشهرستاني عن الأمر فقال :" و قبلة السامرة جبل يقال له غريزيم بين بيت المقدس و نابلس ، قالوا إن

الله تعالى أمر داود أن يبني بيت المقدس بجبل نابلس وهو الطّور الذي كلّم الله فيه موسى ، فتحوّل داود إلى إيلياء و بنى البيت فيها و خالف الأمر فظلم ، و السامرة توجّهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود ، و لغتهم غير لغة اليهود و زعموا أنّ التوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية".

و أيّا يكن الأمر فإنّ الفرق اليهودية التي عاصرت المسيح عليه السلام شاع بينها من التخلّي عن الأحكام و اتّباع الشهوات و النّزوع نحو الرئاسة و الجاه ما استدعى بعثة نبيّ لأجل تخليص الشّعب اليهودي من الفساد الذي هو فيه ، وهم الذين قال الله فيهم : " يا أيها الذين ءامنوا إنّ كثيرا من الأحبار و الرّهبان لياكلون أموال الناس بالباطل و يصدّون عن سبيل الله " و هم الذين قال فيهم عيسى عليه السلام :" ما أرسلني الله إلّا إلى الخراف الضالّة من بني إسرائيل" (مت:24/15). وقد كان ينهى المسيح عليه السلام أتباعه عن تقليد الفّريسين و معلّمي الشّريعة في أفعالهم و يأمرهم بطاعة اقوالهم لأنّهم يقولون ما لا يفعلون ؛ :" معلّمو الشّريعة و الفرّيسيون على كرسيّ موسى جالسون ، فافعلوا كلّ ما يقولونه لكم واعملوا به ، ولكن لا تعملوا مثل أعمالهم لأنّهم يقولون ولا يفعلون"متّى:2/23-4 ، و لذلك وصفهم بأشنع الصّفات ؛ الرّياء و االنّفاق و بالحيّات أولاد الأفاعي ، و دعا عليهم بالويل و الثّبور و توعّدهم بالجحيم.. لشناعة أفعالهم و كثرة كذبهم (متى:37/23:13)

يقول يوحنا لورنس :"فلم يكن ممكنا بأنّ واحدة من هذه الشّيع تطيع و تنشر مبادئ حقيقة الفضيلة و التّقوى ؛ فالفرّيسيون كما شكاهم المسيح كانوا يستخفون التّقوى الدّاخلية و كانوا يطلبون المديح الخارجي بالتّظاهر الباطل و العيشة القاسية ونسبوا أيضا سلطانا لتقاليدهم البالية أكثر ممّا لوصايا الله المقدّسة و الصّدوقيون أحيوا الآثام وكلّ شهوة برفضهم كلّ ثواب وعقاب في المستقبل و الأسينيون سبط موسوس و محرّف جعلوا قيام التّقوى بالكسل المقدّس وببغض البشر وهكذا قطعوا رباطات الهيئة الاجتماعية.

في هذه الأجواء وُلد عيسى عليه السلام و في ظلّ هذه الظروف نشأ وترعرع ، وعلى الرّغم من أنّ بقاءه كان قصيرا إلّا أنّه استطاع بدعوته وبالمعجزات التي أيّده الله بها أن يجابه غرور اليهود و مكر الرّومان و أن ينصره الله عليهم جميعا برفعه إليه و تخليصه من أكاذيبهم و وشايتهم .